-4-

السياسة

إحدى مهماتي المفضلة في عملي كعضو في مجلس الشيوخ استضافة لقاءات الأهالي المحليين. عقدت تسعة وثلاثين اجتماعا خلال عامي الأول في الكونغرس، في مختلف أرجاء الينوي، بدءا بالبلدات الصغيرة، مثل آنا، والضواحي المزدهرة، مثل نابرفيل، وانتهاء بالكنائس المخصصة للسود في ساوث ساید والجامعة في روك ايلند. ليس ثمة استعراضات احتفالية هنا. إذ يتصل الموظفون العاملون معي بالمدرسة الثانوية المحلية، أو بالمكتبة، أو الكلية المتوسطة ليأخذوا الموافقة على استضافة اللقاء. وقبل أسبوع أو نحوه، نعلن عن المناسبة في الصحيفة المحلية، وفي نشرات الكنيسة، وفي الإذاعة. وفي اليوم الموعود أحضر قبل نصف ساعة لأتبادل الحديث مع زعماء البلدة ومن ثم نناقش القضايا المحلية، مثل طريق بحاجة إلى تعبيد أو التخطيط لإقامة مركز جديد للمسنين. وبعد التقاط بعض الصور، ندخل القاعة حيث ينتظر الأهالي. أصافح الأيدي في الطريق إلى المنصة، المكونة عادة من منبر وميكرفون وزجاجة ماء وعلم أمريكي على حامل. ثم أجيب طوال ساعة من الزمن تقريبا عن الأسئلة التي أرسلت إلي في واشنطن.

يتفاوت حجم الحضور في هذه اللقاءات بين خمسين وألفين. لكن بغض النظر عن العدد أشعر بالامتنان لمرأى هؤلاء الناس. فهم عينة نموذجية تمثل المقاطعات والمناطق التي نزورها: جمهوريون وديمقراطيون، شيب وشبان، سمان ونحاف، سائقو شاحنات وأساتذة جامعات، وربات بيوت، ومحاربون قدماء، ومدرسون، ووكلاء تأمين، ومحاسبون قانونيون، وسكرتيرات، وأطباء، وعاملون في الخدمة الاجتماعية. وهم عموما مهذبون ويصغون بانتباه، حتى حين يختلفون في الرأي معي (أو مع بعضهم بعضا). أما أسئلتهم فتتعلق بوصفات الأدوية، والعجز في الميزانية، وحقوق الإنسان في ميانمار، والإيثانول، وأنفلونزا الطيور، وتمويل المدارس، وبرنامج الفضاء. وكثيرا

مـا تدهشني وتفاجئني أسئلتهم: شابة شقراء من قلب الريف تناشد بأسلوب عاطفي مؤثر الحكومة التدخل في دارفور، أو عجوز أسود من سكان الأحياء الداخلية يختبرني في مجال الحفاظ على التربة.

حـين أنظـر إلى المحتشديـن، أشعر بنوع مـن التشجيـع. أرى في ملامحهم الجد والاجتهـاد في العمـل. والأمـل في طريقة تعاملهم مـع أولادهم. الوقـت الذي أقضيه معهـم يشبه غطسة في نبع منعش. فأحس بعد ذلك أنني تطهرت، وأرضى عن العمل الذي اخترته.

في نهايـة اللقـاء، يأتـي الحاضرون عـادة لمصافحتـي أو التقاط الصـور، أو دفع أولادهـم ليطلبوا توقيعـي على دفاتر مذكراتهـم. يدسون أوراقا في يـدي - مقالات، بطاقـات النشاط التجاري، ملاحظات مكتوبة بخط اليـد، أوسمة الخدمة في القوات المسلحـة، أيقونات دينية، تعاويـذ تجلب الحظ السعيد. أحيانـا يمسك أحدهم بيدي ويخـبرني أن آماله عظيمـة فيّ، لكنه قلق من أن واشنطن سوف تغيرني وسأصبح مثل الباقين في السلطة.

كانوا يقولون لي: نرجو أن تبقى كما أنت.

نرجوك لا تخيب رجاءنا.

مـن تقاليدنا الأمريكيـة أن نعزو المشكلـة في سياستنا إلى نوعيـة السياسيين. في بعض الأحيان يعبر عن ذلك بلغة خاصـة: الرئيس مأفون، السيناتور الفلاني متشرد ومتسـول. في أحيان أخرى، تصدر إدانـة أوسع نطاقا: «جميعهم مهتمون بمصالحهم الخاصـة» ويستنتج معظـم الناخبين أن الجميـع في واشنطن «يلعبـون السياسة»، أي أن التصويـت أو المواقـف تتخـذ على النقيض مـن الضمير، وتعتمد علـى مساهمات الحمـلات الانتخابيـة أو الاستطلاعات أو الـولاء للحزب، لا علـى محاولة فعل ما هو صائـب وصحيح. وفي كثير من الأحيان، توجه أقسـى الانتقادات من صفوف المعسكر الـذي ينتمي إليه السياسي، الديمقراطي الـذي «لا يمثل شيئا» أو «الجمهوري بالاسم فقـط» وكلها تؤدي إلى نتيجة واحـدة: إذا أردنا إحداث تغيير في واشنطن فعلينا طرد الأنذال والأشرار.

ومـع ذلك، نبقي الأنذال والأشرار حيث هم، فمعدل إعادة انتخاب أعضاء مجلس النواب يبلغ زهاء 96%.

يمكـن للمختصـين في العلوم السياسيـة تقديم عدد من الأسبـاب لهذه الظاهرة. ففـي عالم اليوم الذي تتصل أجـزاؤه بعضها ببعض، يصعب اخـتراق وعي الناخبين الذيـن تشغلهم أمور الحياة وتشتت انتباههم. ونتيجة لذلك، ينحصر الفوز في ميدان السياسـة في مجرد شهرة الأسماء، ولهذا السبب يقضي معظم المرشحين وقتا طويلا بـين الانتخابات للتأكد مـن أن أسماءهم تتكرر مرارا، في قص الشرائط الحريرية أو مواكـب الرابع من تموز/ يوليو أو في برامج أحاديث الصباح يوم الأحد. هنالك ميزة معروفة يتمتع بها المرشح و تجلب التمويل والتبرعات، لأن مجموعات الضغط التمثيلية ـــ على اليمين أو اليسـار ـ تميل إلى التأييد حين يتعلق الأمـر بالمساهمات السياسية. وهنالك دور لإعادة رسم حدود الدوائر الانتخابية في عزل وحماية مجلس النواب من التحديـات المهمة: في هذه الأيـام، يرسم الحزب الحاكم حـدود كل منطقة انتخابية للكونغرس بدقة الكمبيوتر لضمان وجود أغلبية واضحة للديمقراطيين أو الجمهوريين داخـل تخومهـا. وفي الحقيقة، ليس مـن المبالغة القول إن معظـم الناخبين لم يعودوا يختارون ممثليهم؛ بل على العكس، الممثلون هم الذين يختارون ناخبيهم.

هنالك عامل آخر يؤثر في هذا السياق، نادرا ما ذكر لكنه يساعد في تفسير السبب الذي يجعل استطلاعات الرأي تظهر باستمرار كراهية الناخبين للكونغرس ومحبتهم لأعضائـه. وربما يصعب تصديـق حقيقة أن معظم السياسيـين يتمتعون بشخصيات محببة إلى النفس.

مـن المؤكد أنني وجـدت ذلك يصدق علـى زملائي الأعضاء. فـكل منهم يجسد صحبـة رائعة في اللقاءات الثنائية ـ إذ يصعب علي العثور على «راوية»أفضل من تيد كنيـدي أو ترينـت لوت، أو أسرع بديهة وأذكى وأظرف مـن كينت كونراد أو ريتشارد شيلبـي، أو أكـثر دفئا وودا من ديبي ستابينو أو ميل مارتينيز. كقاعدة عامة، ثبت أن هـؤلاء أذكياء ومجدون يتمتعـون بعمق التفكير والاستعداد لتكريـس ساعات طويلة، وانتبـاه مركـز على القضايـا المؤثرة في ولاياتهم. أجـل، هنالك أيضـا أولئك الذين

يشبهون النمط المعروف، الذين يتكلمون دون توقف أو يستأسدون على موظفيهم ومساعديهم؛ كلما طالت المدة التي أقضيها في قاعة المجلس، تزداد قدرتي على تحديد العيوب والمثالب التي نعاني منها جميعا كأعضاء بدرجات متفاوتة ـ طبع سيئ هنا، عناد أو تيه وخيلاء هناك. لكن على الأغلب، يبدو أن حاصل هذه السمات والصفات في المجلس لا يزيد عن ذلك الذي نجده في أي شريحة عشوائية من السكان عموما. وحتى عندما أتحدث مع أولئك الزملاء الذين أختلف معهم اختلافا عميقا، يفاجئني فيهم إخلاصهم وصدقهم ـ رغبتهم في عمل الصواب وجعل بلادهم أفضل حالا وأكثر قوة؛ وفي تمثيل ناخبيهم وتجسيد قيمهم بأقصى درجة من الإخلاص تسمح بها الظروف.

إذن، ما الذي جعل هؤلاء الرجال والنساء يبدون شخصيات متجهمة ومتشددة وعنيدة وغادرة، ووضيعة ودنيئة أحيانا، في نشرات الأخبار المسائية؟ ما الخطأ في العملية الذي منع الأشخاص العقلانيين والمنطقيين وأصحاب الضمير من أداء المهمات الضرورية للأمة؟ كلما طالت خدمتي في واشنطن، زاد عدد الأصدقاء الذين أراهم يبحثون في وجهي عن ملامح التغيير وعن أمارات التباهي والتفاخر الجديدة، وعن علامات تلمح لأي ولع بالجدل أو الحذر والاحتراس والتحفظ. بدأت تفحص ذاتي بطريقتي الخاصة؛ فوجدت بعض السمات التي أتقاسمها مع زملائي الجدد، وتساءلت: ما الذي يحول دون تحولي إلى سياسي نمطي من النوع الشائع في الأفلام التلفزيونية الرديئة؟.

تمثلت إحدى نقاط الانطلاق لاستقصائي في فهم طبيعة الطموح، ففي هذا المجال على الأقل يتباين أعضاء مجلس الشيوخ. قلة من الناس ينتهي بهم المطاف أعضاء في مجلس شيوخ الولايات المتحدة صدفة؛ فعند الحد الأدنى، يتطلب ذلك قدرا من جنون العظمة، اعتقادا بأنك من بين جميع الموهوبين في ولايتك، مؤهل بدرجة فريدة للتحدث باسمهم؛ اعتقادا قويا بأنك على استعداد لتحمل العملية التي ترفع الروح المعنوية حينا، وتسبب الحزن والكدر أحيانا، والسخيفة إلى حد ما دوما، التي ندعوها الحملات الانتخابية.

فضـلاً عـن أن الطمـوح وحـده لا يكفي. فمهمـا كان تشابـك البواعـث، المقدسة والمدنسة، التي تدفعنا نحو هدف عضوية مجلس الشيوخ، لا بد أن يظهر أولئك الذين نجحـوا في تحقيقه تصميما عنيدا ومتزمتا، مع تجاهل صحتهم وعلاقاتهم وتوازنهم الذهنـي والنفسي، وكرامتهم غالبا. بعد انتهاء حملتي الانتخابية الأولية، أتذكر أنني نظرت إلى الروزنامة وأدركت أنني طوال سنة ونصف السنة، لم آخذ سوى سبعة أيام استراحـة. في حين عملت في العـادة مدة تراوحت بين اثنتي عشرة وست عشرة ساعة في اليـوم. ولم يكـن ذلك من الأمور التي أفتخر بها. فقـد أشارت ميشيل مرارا خلال الحملة الانتخابية إلى أن ذلك ليس أمرا عاديا.

لكن لا الطمـوح ولا التصميم على هدف وحيد يفسران سلوك السياسيين. هنالك عاطفـة انفعالية مرافقة، ربما تكون أكثر عمقا وبالتأكيد أشد تدميرا، عاطفة تمسك بخناقـك بعد الدوار الناجم عن إعـلان ترشيحك رسميا، ولا تفك أسرك إلا بعد يوم الانتخابـات. هذه العاطفة هي الخوف. الخوف لا من الخسارة فقط، على الرغم من تأثيرها السيئ، بل من التعرض لإذلال كامل ساحق.

علـى سبيـل المثال، ما زالـت تعذبني ذكرى خسارتـي الوحيـدة في السياسة، تلك الهزيمـة النكراء عام 2000 على يد المرشح الديمقراطـي السيناتور بوبي روش. كان سباقـا حـدث فيه فعـلا كل شيء سيـئ يخطر على البـال، حيث تضاعفـت أخطائي بالمآسـي وتضخمت بالملاهـي. فبعد أسبوعين اثنين من إعـلان ترشيحي، وليس معي مـن المال سوى بضعة آلاف من الدولارات، فوضت مؤسسة مهمة إجراء أول استطلاع للرأي واكتشفت أن اسم منافسي معروف بنسبة 90% في حين لم يتجاوز اسمي نسبة 11%. أمـا معدل الموافقة عليه فبلغ زهاء 70% ـ ولم يتجاوز المعدل بالنسبة لي 8%. وبتلك الطريقة تعلمت واحدة من أهم القواعد المؤسسة للسياسة الحديثة: قم بإجراء استطلاع للرأي قبل أن تعلن ترشيحك.

سـاءت الأمور بسرعـة منذ تلك النقطـة. في تشريـن الأول/ أكتوبر حين كنت في طريقـي إلى اجتمـاع بهدف تأمـين موافقة بعض مسـؤولي الحزب الذيـن لم يؤيدوا منافسـي بعد، سمعت خبرا في الإذاعة يقول إن ابن السيناتور روش قتل على يد اثنين

مـن تجار المخدرات خارج منزله. صدمت وحزنت وشعـرت بالتعاطف مع السيناتور، وأوقفت حملتي الانتخابية مدة شهر.

وخـلال عطلة أعيـاد الميلاد، بعـد أن سافرت إلى هاواي في رحلـة قصيرة مدتها خمسـة أيام لزيارة جدتي وتجديد علاقتي مع ميشيل وابنتي ماليا (التي بلغت ثمانية عشـر شهرا آنـذاك)، دعي مجلـس شيوخ الولايـة إلى جلسة خاصـة للتصويت على تشريـع لضبط السلاح. ولأن ماليا كانت مريضة وتعذر عليها السفر بالطائرة، تغيبت عـن التصويـت فسقط مشروع القانـون. وبعد يومين، نزلت مـن الطائرة في الصباح (بعـد رحلـة ليلية) في مطار اوهارا، لأجد طفلة تبكـي، وزوجة لا تكلمني، وقصة على الصفحـة الأولى في «شيكاغو تريبيون» تقول: إن مشـروع قانون ضبط الأسلحة الذي فشـل كان بحاجة إلى بضعة أصوات، أما سيناتور الولاية والمرشح لعضوية الكونغرس أوبامـا فقد «قرر البقاء في إجازة» في هاواي. اتصل بي مدير حملتي الانتخابية وذكر أن الدعاية المحتملة لمنافسي سوف تظهر قريبا: أشجار نخيل، ورجل يجلس مسترخيا علـى مقعد الشاطـئ ويرشف من قـدح الكوكتيل المثلوج، ونغمات حالمـة لغيتار يعزف في الخلفيـة، وفجـأة يصرخ صوت مجلجـل: «في حين تعاني شيكاغو مـن أعلى معدل للجريمة في تاريخها، هاهو باراك أوباما..».

قاطعته هنا بعد أن فهمت مقصده.

وهكـذا، في منتصـف الحملـة الانتخابية عرفت في داخلـي أننـي سأخسر. ومنذ ذلـك الحين كنت أستيقظ كل صباح وقد غمرني شعور غامض بالهلع، مدركا أن علي قضـاء النهار مبتسما ومصافحـا الأيدي ومتظاهرا بأن كل شـيء يسير وفقا للخطة المرسومـة. في الأسابيع القليلة السابقة على الانتخابـات التمهيدية، استعادت حملتي بعض الزخم: أبليـت بلاء حسنا في المناظـرات التي غطتها وسائـل الإعلام أحيانا، حيـث تابعت بطريقة إيجابيـة اقتراحاتي فيما يتعلق بالرعايـة الصحية والتعليم، بل تلقيـت تأييدا من «شيكاغو تريبيون» لكنه جاء ضعيفا جدا ومتأخرا جدا. ثم اكتشفت أن السباق قد بدأ وخسرت بفارق واحد وثلاثين نقطة.

لا أقصد أن السياسيين وحدهم يعانون مثل هذه الخيبات. لكنهم خلافا لمعظم الناس الذين يستطيعون لعق جراحهم في السر، يخسرون علنا وعلى رؤوس الأشهاد. يجب عليك إلقاء خطبة تعترف فيها بالهزيمة في قاعة غادرها نصف الحضور، وأمارات الشجاعة يجب أن تعلو وجهك وأنت تواسي المساعدين والأنصار، وتوجه عبارات الشكر إلى كل من قدم المساعدة، وتقدم الطلبات المحرجة لمزيد من العون في سداد الديون. أنت تؤدي هذه المهمات على أفضل وجه، لكن بغض النظر عما تقوله لنفسك ـ مدى اقتناعك بأن سبب الخسارة يعود إلى التوقيت السيئ أو الحظ العاثر أو نقص المال ـ فإن من المستحيل ألا تشعر على أحد المستويات وكأن المجتمع بأسره رفضك شخصيا، وأنك لا تملك المؤهلات والسمات الضرورية للنجاح، وتظن أن كلمة (فاشل) تومض في أذهان الناس كلما شاهدوك في أي مكان تذهب إليه. هذه المشاعر لم يختبرها معظم الناس منذ مرحلة المدرسة الثانوية، حين رفضتك صديقتك هازئة أمام صاحباتها، أو أخطأت خطأ ذريعا في إحدى المباريات ـ تلك الأنواع من المشاعر التي ينظم البالغون الراشدون حياتهم بحكمة وحصافة لتجنبها.

تخيل إذن تأثير هذه العواطف الانفعالية ذاتها على سياسي مشهور، نادرا ما فشل (خلافا لي) في حياته ـ كان لاعبا أساسيا وموهوبا في المدرسة الثانوية، ونال في صفه أعلى الدرجات (وألقى الخطبة الوداعية عند التخرج)، في حين كان أبوه عضوا في مجلس الشيوخ أو أدميرالا، وكرر على مسامعه منذ الطفولة أن مستقبلا عظيما ينتظره. أتذكر حديثا مع مدير تنفيذي في إحدى الشركات كان نصيرا متحمسا لنائب الرئيس آل غور خلال السباق الرئاسي عام 2000. كنا نجلس في مكتبه الفخم، المطل على منهاتن، حين أخذ يصف لي لقاء معه بعد زهاء ستة أشهر من الانتخابات، عندما سعى وراء المستثمرين لتمويل مشروعه التلفزيوني الذي كان في مهده آنذاك.

قال لي المدير: «بدا الأمر غريبا. فها هو هنا، نائب رئيس سابق، وكان قبل بضعة أشهر على وشك أن يصبح أقوى رجل على الكوكب الأرضي. خلال الحملة الانتخابية، كنت أتلقى اتصالاته في أي وقت، وأعيد ترتيب جدول مواعيدي كلما أراد الاجتماع بي. لكن فجأة، بعد الانتخابات، لم أستطع منع نفسي حين يدخل مكتبي من الشعور بأن

اللقـاء معه عبء ثقيل. كرهت الاعتراف بذلـك، لأنني أحبه فعلا. لكنه، على مستوى من المستويات، لم يكن آل غور، نائب الرئيس. بل مجرد واحد من مئات الأفراد الذين يأتـون لمقابلتي كل يـوم سعيا وراء المال، وهذا ما جعلنـي أدرك مدى المنحدر الشاهق الذي تقفون أنتم السياسيون على حافته»

منحـدر شاهق، وهاوية سحيقـة. خلال السنوات الخمس الماضيـة، أظهر آل غور حجم الرضى والقناعة والتأثير الذي تقدمه الحياة بعد الخروج من معترك السياسة، وأظن أن المدير التنفيذي لا يزال يتلقى اتصالات وزيارات نائب الرئيس السابق بتشوق. ومـع ذلـك أتخيل أن آل غور استشعر حتما بعد خسـارة انتخابات عام 2000، التغيير الـذي أصاب صديقه. فعندمـا جلس هناك، وطرح فكرته عـن مشروعه التلفزيوني، وحـاول تحسين الوضـع السيـئ إلى أقصى حد، فكـر بالتأكيد بمـدى سخف وعبثية الظـروف التي وجد نفسه فيها؛ كيف خسر كل شيء بعد حياة حافلة بالعمل والنشاط بسبب تذبذب في التصويت لم يأت لمصلحته، في حين جلس قبالته صديقه المدير وعلى وجهـه ابتسامة استعـلاء، مع أن شركته ربمـا لم تحقق نجاحا تجاريـا باهرا، وربما تراجعـت أسعار أسهمها أو اتخذ قرارا استثماريا متهورا، ومع ذلك يفخر بإنجازاته، ويتمتـع بتعويض مالي كبـير، ويمارس سلطته ونفوذه. العدالـة غائبة، لكن غيابها لن يغـير الحقائق فيما يتعلق بنائب الرئيـس السابق. وعلى شاكلة معظم الذين عملوا في المجـال العام، عرف آل غور ما الذي ينتظره عندما قرر الترشح. ففي السياسة يمكن أن تكرر العمل مرة ثانية لكن ليس فيها مكان إلا للأوائل.

* * *

معظـم خطايـا السياسة مشتـق من هذه الخطيئـة الكبرى ـ الحاجـة الماسة إلى الفـوز، وضـرورة عدم الخسـارة. من المؤكد أن ذلـك هو جوهر المسعـى لجمع المال. قبـل القوانين الناظمة لتمويل الحملات الانتخابيـة والمراسلين المتطفلين الفضوليين، كان المـال هو الذي يصنع السياسـة بواسطة الرشى السافرة؛ وكان بمقدور السياسي التعامـل مع مال حملته كأنه حسابه المصرفي الخاص ويقبل الدعوات للولائم المترفة؛ وشاعت المكافآت الضخمة المقدمة من الساعين للنفوذ، واستطاع من يقدم أعلى سعر

صياغة القانون والتشريع. وإذا صدقت التقارير الصحفية التي ظهرت حديثا، فإن هذه الأشكال الفاحشة من الفساد لم تختف عن الساحة كليا؛ وعلى ما يبدو، ما يزال في واشنطن من يعدون السياسة وسيلة للغنى وسلما للثراء، وفي حين لا يصل غباؤهم عموما إلى حد قبول مبالغ مالية صغيرة، إلا أنهم على أتم الاستعداد للاهتمام بالمساهمين وتملقهم ومحاباتهم إلى أن يأزف الوقت المناسب أخيرا للانضمام إلى جماعات الضغط المربحة وتمثيل مصالحها.

لكن في معظم الأحيان، لا يمارس المال نفوذه على السياسة بهذه الطريقة. فقلة من جماعات الضغط تعرض مالا أو تقدم رشى بشكل سافر إلى المسؤولين المنتخبين. فهي ليست مضطرة لذلك. لأن نفوذها يأتي ببساطة من صلتها التي تفوق بقوتها صلة الناخبين العاديين بهم، وامتلاكها معلومات لا يعرفونها، وتمتعها بقوة التحمل والجلد والدأب حين يتعلق الأمر بترويج بند غامض في قانون الضرائب يغل مليارات الدولارات على عملائها ولا يأبه له الآخرون.

فيما يتعلق بالسياسيين، لا يمثل المال الهدف المقصود دوما. فمعظم أعضاء مجلس الشيوخ، على الأقل، من الأثرياء أصلا. بل يعني المحافظة على المكانة والسلطة؛ وترهيب المنافسين والمتحدين وإبعاد شبح الخوف. لا يمكن للمال أن يضمن الفوز ـ فهو لا يستطيع شراء العاطفة، أو الشخصية الكاريزمية الآسرة، أو القدرة على رواية قصة بأسلوب ممتع. لكن في حالة الافتقار إلى المال، والإعلانات الدعائية التلفزيونية التي تستهلكه كله، سوف تخسر الانتخابات حتما.

حجم المبالغ المالية المستخدمة يحبس الأنفاس، خصوصا في السباقات التي تجري في الولايات الكبرى التي تتعدد فيها الأسواق الإعلامية. فحين كنت في مجلس شيوخ الينوي، لم أضطر إلى إنفاق أكثر من مئة ألف دولار على السباق؛ وفي الحقيقة، اشتهرت بالاعتدال واتباع الأساليب القديمة حين يتعلق الأمر بجمع التبرعات، وشاركت في تمرير أول تشريع لتنظيم تمويل الحملات الانتخابية طوال خمسة وعشرين عاما، ورفضت الولائم من جماعات الضغط، والشيكات من الجماعات المؤيدة للصيد والمدافعة عن مصالح شركات التبغ. وحين قررت الترشح لعضوية مجلس الشيوخ، اضطر مستشاري

الإعلامـي، ديفيد اكسلرود، أن يشـرح لي حقائق الحياة. واعتمدت خطة حملتنا على ميزانيـة هزيلـة أتى معظمها مـن الأنصار والمؤيديـن على مستوى القاعـدة الشعبية و«الإعـلام المكتسب» ـ أي القدرة على صنع أخبارنا بأنفسنا. ومع ذلك، أبلغني ديفيد أن أسبوعـا من الإعلانـات الدعائية التلفزيونية في سوق وسائـل الإعلام في شيكاغو سيكلف زهاء نصف مليون دولار. أما الدعاية للحملة في بقية أرجاء الولاية مدة أسبوع فتكلف حوالي ربع مليون دولار. وبذلك، تبلغ الميزانية النهائية للانتخابات التمهيدية، بعد حساب تكلفة أربعـة أسابيع من الدعاية التلفزيونية، والمصروفات العامة ورواتب الموظفين والمساعدين في حملة تشمل الولاية بأسرها، زهاء خمسة ملايين دولار. وعلى افتراض أنني سأفوز في الانتخابات التمهيدية، سوف أحتاج بعد ذلك إلى جمع عشرة أو خمسة عشر مليونا إضافية للانتخابات العامة.

عـدت إلى البيت تلـك الليلة لأكتب قائمـة بأسماء جميع الأشخاص الذين يمكن أن يساهمـوا في الحملـة. ووضعـت جانب اسم كل منهم الحد الأعلـى من المبلغ الذي أستطيع دون حرج طلبه منه.

إجمالي المبلغ وصل إلى خمسمائة ألف.

في غيـاب الثروة الشخصية، هنالك سبيل واحد لجمع المال المطلوب لخوض سباق الترشـح للكونغرس الأمريكي: يجـب أن تطلبه مـن الأثرياء والموسريـن. في الأشهر الثلاثـة الأولى مـن الحملـة، كنت أغلـق باب الغرفـة وأجلس مع مساعـدي لشؤون التبرعـات وأتصل بالمتبرعـين الديمقراطيـين السابقين. لم يكن الأمـر ممتعا أبدا. بعضهم كان يغلق الخـط في وجهي. وفي أحيان كثيرة كانت السكرتيرة تتسلم رسالتي وتعـدني بالاتصـال لاحقا، لكنها لا تفعل، فأتصل أنا مرتين أو ثلاثا إلى أن أتخلى عن المحاولـة أو يجيبنـي الشخص المعني ويرفض بأسلوب مهذب. بـدأت أختلق الأعذار لتجنـب اللقاءات خلال هـذه الاتصالات ــ الدخول إلى الحمـام، الاستراحة لشرب القهـوة، تنقيـح خطبة التعليم للمـرة الثالثة أو الرابعة. في بعض الأحيان خلال هذه الجلسـات فكرت بجـدي، الذي عمل في منتصـف العمر في بيع بوالصـ التأمين على الحياة لكنه لم يكن يصيب نجاحا فيه. وتذكرت تبريحه كلما حاول ترتيب مواعيد مع

أشخاص يفضلون قلع أضراسهم على التحدث مع مندوب التأمين، إضافة إلى نظرات الاستهجان التي يتلقاها من جدتي، التي كسبت قدرا أكبر من المال مقارنة به طوال حياتهما الزوجية.

عرفت أكثر من أي وقت آخر ما شعر به جدي آنذاك.

عند نهاية الشهور الثلاثة، لم يزد المبلغ الذي جمعته الحملة عن ربع مليون دولار ــ أي أقل بكثير من الحد الأدنى. وما زاد الطين بلة أن السباق أبرز ما يعده الكثير من السياسيين أسوأ كوابيسهم: خصم ذاتي التمويل متخم الجيوب كان اسمه بلير هول، باع نشاطه التجاري المالي إلى غولدمان ساكس قبل بضع سنوات بمبلغ 531 مليون دولار. ومما لا شك فيه أنه امتلك رغبة حقيقية، وإن لم تكن محددة، في خدمة وطنه، وكان وفقا لجميع المعايير رجلا لامعا ذكيا. لكنه عانى خجلا مؤلما في الحملة الانتخابية، وبدا من أسلوبه الغريب الجواني وكأنه أمضى معظم عمره وحيدا أمام شاشة الكمبيوتر. وأحسب أنه مثل الكثيرين، ظن أن السياسي ـ خلافا للطبيب أو قائد الطائرة أو السباك ـ لا يتطلب خبرة خاصة في أي شيء نافع، وأن رجل أعمال مثله قادر على الأداء والإنجاز على الأقل بمستوى، وربما أفضل من أي سياسي محترف شاهده على شاشة التلفزيون. في الحقيقة، عد السيد هول تضلعه من الأرقام مصدر نفع وقوة لا يقدر بثمن: في إحدى مراحل الحملة كشف أمام أحد المراسلين عن معادلة رياضية وضعها للفوز في الحملات الانتخابية، خوارزمية تبدأ على النحو التالي:

الاحتمال = 1/ (1+ المصروفات (-1× (- 3،9659056 + (ثقل الانتخابات العامة × 1,92380219)...

وتنتهي بعدد من العوامل التي يتعذر فك شيفرتها.

جعل ذلك كله من السهل إلحاق الهزيمة بمنافسي السيد هول ــ لكن في صباح أحد أيام شهر أبريل أو مايو، حين خرجت من المرأب الدائري في المجمع السكني حيث أقيم وتوجهت نحو المكتب، استقبلني صف خلف صف من اللافتات القماشية الكبيرة الملونة بالأحمر والأبيض والأزرق، كتب عليها: بلير هول إلى مجلس الشيوخ.

شاهـدت اللافتات على امتداد خمسـة أميال في كل شارع وكل طريق سريع وكل اتجاه وركـن، على واجهات محلات الحلاقة وعلى الأبنية المهجورة وأمام مواقف الحافلات وخلف طاولات متاجر البقالة ـ لافتات هول انتشرت في كل مكان، مثل زهور الربيع في حقل أخضر.

هنالـك قول شائع في ميدان السياسة في الينوي: «اللافتات لا تدلي بأصواتها»، أي أنـك لا تستطيـع الحكم على نتيجة السباق الانتخابي من عدد لافتات المرشح. لكن لم يشاهد أحـد في الينوي خلال مسار الحملات الانتخابية مثل هذا العدد من اللافتات واللوحـات الإعلانية التي وضعها السيد هول في يوم واحد، أو الكفاءة المرعبة لطاقمه من العمال المأجورين في وضع ورفع لافتات هول في حدائق جميع البيوت خلال أمسية واحـدة. بدأنا نقرأ عن زعمـاء بعض أحياء السود الذين قرروا فجـأة أن السيد هول هـو المدافع عن الأحيـاء الداخلية في المدن، وبعض الزعمـاء في أقاصي الولاية الذين امتدحوا دعم السيد هول للمزارع العائلية. ثم هناك الإعلانات الدعائية التلفزيونية، التـي استمـرت ستة أشهر كاملة حتى يـوم الانتخابات، على كل محطـة في كل أرجاء الولاية على مدار الساعة ـ بلير هول مع المسنين، بلير هول مع الأطفال، بلير هول على استعـداد لإنقاذ واشنطن من هيمنة المصالح الخاصـة. وبحلول كانون الثاني/ يناير 2004، احتـل المركز الأول في استطلاعات الرأي، وبدأ أنصاري يتصلون بي مطالبين بإلحاح أن أفعل شيئا، وأن أظهر على شاشة التلفزيون فورا وإلا سيضيع كل شيء.

مـاذا كان بمقدوري أن أفعل؟ قلت مفسرا: إن صافي الموجودات لدي سلبي، وذلك خلافا للسيد هول. وفي حالة حدوث أفضل السيناريوهات، فإن حملتنا لديها ما يكفي مـن المال للاستمـرار أربعة أسابيع بالضبط من الإعلانـات التلفزيونية، وبسبب هذه الحقيقـة، فإن من غير المنطقي أن ننفق ميزانية الحملة كلها في شهر آب/ أغسطس. كنـت أقول للأنصار والمؤيديـن: عليكم التحلي بالصبر. تشبثوا بالثقة. لا تدعوا الهلع يسيطر عليكم، ثم أقفل خط الهاتف، وأنظر عبر النافذة، فأشاهد عربة الدعاية التي يتجـول بها هول في أرجاء الولاية، كبيرة كالباخرة التـي تمخر عباب المحيط، وأسأل نفسي هل حان الوقت للهلع.

كنـت أكثر حظا من معظم المرشحين في مثل هذه الظـروف. فلسبب من الأسباب بدأت حملتـي تولد تلك السمة الغامضة المراوغة المميـزة للزخم والأزيز؛ وأصبح من الـدارج أن يروج المتبرعون الأثرياء قضيتي، في حين بدأ المتبرعون الأقل ثراء يرسلون «شيكاتهـم» عبر الإنترنت بوتيرة لم نتوقعها أبدا. والمفارقة أن الحصان الأسود الذي مثلتـه وفر لي الحماية من أخطر الشراك والمـآزق المصاحبة لجمع التبرعات: معظم لجـان العمل السياسـي في الشركات تجنبتني، ولم أكن مدينا لهـا بشيء؛ والقلة التي عبرت فعلا عن دعمها، مثـل عصبة الناخبين المحافظين، كانت تمثل نمطيا القضايا التـي آمنـت بها وناضلنـا من أجلها طويلا. مـا زال السيد هول يتفـوق علي في مجال الإنفاق بنسبة ستة إلى واحد. لكن يعود إليه فضل عدم عرض أي إعلان دعائي سلبي ضـدي (وربما شعر بالندم لذلك). النقاط التي حصلت عليها في استطلاعات الرأي ظلـت ضمن مسافة قريبة مـن نقاطه، وفي الأسابيع الأخيرة مـن الحملة، حين بدأت دعايتي التلفزيونية ونقاطي بالارتفاع، تفجرت حملته عندما ظهرت مزاعم تشير إلى شجار عنيف مع زوجته السابقة.

وهكـذا، لم يمثل الافتقـار إلى الثروة أو دعم وتأييد الشـركات المهمة حاجزا حال بينـي وبين النصر. ومـع ذلك، لا أستطيـع الافتراض أن السعـي إلى المال لم يغيرني بطريقـة ما. من المؤكد أنه استأصل أي إحساس بالخجل عانيته ذات مرة عند الطلب من الغرباء التـبرع بمبالغ مالية كبيرة. وبحلول نهاية الحملة، غابت المضايقة والهذر اللـذان صاحبـا ذات مرة اتصالاتي الهاتفية التوسلية. دخلـت المعمعة وحاولت رفض الإجابة بلا.

لكـن مـا أقلقني تغيير آخر. فقد وجدت نفسي أقضـي وقتا متزايدا مع الأغنياء والنافذيـن ـ وشركاء في المؤسسات القانونيـة، ومسؤولي بنوك الاستثمار، ومديري صناديـق التحـوط، ورأسماليـين مـن أصحـاب المشروعـات التجاريـة. على وجه العمـوم كانوا أذكياء وبارعين ومثيرين للاهتمـام، ومتضلعين من السياسة العامة، وليبراليـين في سياستهـم، ولا ينتظرون أكثر من أن تسمـع آراؤهم مقابل أموالهم. لكنهـم عـبروا، بطريقة موحـدة تقريبا، عن وجهـات نظر طبقتهـم: نسبة الواحد

بالمائـة من أصحاب أعلى دخـل، القادرين على دفع ألفي دولار إلى مرشح سياسي. كانـوا يؤمنون بالسوق الحر والنظام التعليمي القائم على الكفاءة والأهلية والقدرة (لا علـى المزايا الطبقية أو المالية)؛ وصعـب عليهم تخيل وجود أي آفة اجتماعية لا يمكـن معالجتها بالدرجات العاليـة في اختبار دخول الجامعـة. وعيل صبرهم من السياسة الحمائيـة، وعدوا النقابات متعبة ومسببة للمشكلات، وتعاطفوا على نحو خاصـ مع الذين تأثرت حياتهم تأثرا جذريـا بحركة رأس المال العالمية. ومعظمهم من المؤيدين العنيدين لإباحة الإجهاض وضبط السلاح، وتراودهم شكوك غامضة حول العاطفة الدينية العميقة.

وعلى الرغم من تلاقي وجهات نظرنا تجاه العالم بطرق عديدة ـ درسنا في المدارس ذاتها، وقرأنا الكتب نفسها، وشعرنا بالقلق نفسه على أولادنا ـ إلا أنني وجدت نفسي أتجنب بعض الموضوعات خلال الحوار معهم، محاولا إخفاء الخلافات المحتملة، وتوقع آمالهـم وطموحاتهم. في القضايـا الجوهرية كنت صريحا ومباشرا؛ لم أواجه مشكلة في إبلاغهـم بـأن التخفيضات الضريبيـة التي تلقوها من جورج بوشـ يجب عكسها. وكنت أحاول بقدر ما أستطيع أن أتقاسم معهم وجهات النظر التي سمعتها من شرائح أخرى من الناخبين: الدور المشروع للدين في السياسة، مثلا، أو المدلول الثقافي العميق للسلاح في المناطق الريفية من الولاية.

ومـع ذلك، أعرف أنني أصبحت، كعاقبة لجمـع التبرعات، أكثر شبها بالمتبرعين الأثريـاء الذين التقيت بهم، بمعنى أنني قضيت مزيدا مـن الوقت بعيدا عن الكفاح، خـارج عالم الجوع والإحباط والخوف والتهور واللاعقلانية، عالم المشقة التي يعانيها 99% مـن السـكان الآخريـن ـ أي عالم النـاسـ الذين دخلت الحيـاة العامة من أجل خدمتهـم. وبطريقـة أو بأخـرى، أظـن أن هذا يصدق علـى أعضاء مجلسـ الشيوخ جميعـا: كلمـا طال عهدك بالعضويـة، ضاق مدى تفاعلاتك. لربمـا تحاول منع ذلك عبر الاجتماعات مع الأهالي المحليين وجولات الإصغاء والاستماع للمواطنين والتوقف في الأحياء القديمة. لكن جدول مواعيدك يملي عليك أن تتحرك في مدار مختلف عن معظم النـاس الذين تمثلهم.

ومع اقتراب السباق التالي، ربما يدعوك صوت جواني قائلا: ليس من الضروري أن تعاني مرة أخرى كل شقاء وعذاب جمع المبالغ الصغيرة من المال. وتدرك أنك فقدت السمة التي ميزتك في البداية؛ الوجه الجديد؛ وأنك لم تغير شيئا في واشنطن، وجلبت التعاسة للعديد من الناس بالتصويت في المجلس. السبيل السهل القليل العقبات ـ عملية جمع التبرعات التي تنظمها المصالح الخاصة، ولجان العمل السياسي في الشركات، وجماعات الضغط النافذة ـ يلوح لك مغويا ومغريا إلى أبعد حد، وإذا تعارضت آراء هؤلاء الخبراء والمطلعين على بواطن الأمور مع الآراء التي تبنيتها ذات مرة، تتعلم عقلنة وترشيد التغيرات بوصفها أمرا يتعلق بالواقعية والتسوية وفهم الإجراءات الروتينية المتبعة. أما مشكلات الناس العاديين، وأصوات بلدات المناطق الصناعية أو المناطق الداخلية التي تعاني الانحسار والانحطاط، فتغدو صدى بعيدا لا واقعا ملموسا، تجريدات نظرية يجب إدارتها لا معارك يجب خوض غمارها.

هناك قوى أخرى تؤثر في عضو الشيوخ. فعلى الرغم من أهمية المال في الحملات الانتخابية، إلا أن جمع التبرعات وحده لا يضع المرشح على القمة. فإذا أردت أن تربح في السياسة ــ أو إذا لم ترد أن تخسر ـ فإن للجماعات المنظمة أهمية النقد السائل، خصوصا في الانتخابات التمهيدية التي لم تحقق النجاح المطلوب، في عالم يعاد رسم خريطته السياسية ويقسم ناخبوه، لأنها تعد أهم سباق يواجه أي مرشح. قلة من الناس يملكون الوقت الكافي في هذه الأيام أو الميل للتطوع في حملة سياسية، خصوصا وأن المهمات اليومية للعمل في الحملة الانتخابية تشمل لعق مغلفات الرسائل ودق الأبواب، لا كتابة مسودات الخطب أو ابتكار أفكار عظيمة. ولذلك، إذا كنت مرشحا بحاجة إلى مساعدين سياسيين أو قوائم بالناخبين، عليك أن تذهب إلى الجماعات المنظمة. يعني ذلك للديمقراطيين النقابات والجماعات البيئية والمؤيدة لإباحة الإجهاض. وللجمهوريين اليمين الديني، وغرف التجارة المحلية، وجمعيات الأسلحة الوطنية، والمنظمات المناهضة لزيادة الضرائب.

لم أشعر بالارتياح قط لتعبير «المصالح الخاصة» الذي يجمع معا شركة «اكسون موبيل»، وصناع الآجر، وجماعات الضغط المدافعة عن شركات الأدوية، وآباء الأطفال

مـن ذوي الاحتياجـات التعليميـة الخاصة. لن يتفـق معي معظم العلمـاء المختصين بالعلـوم السياسية على الأرجح، لكن ثمة فارق، برأيـي، بين جماعات الضغط المؤيدة للشـركات التي يعتمد نفوذها على المال وحده، وجماعـات مشابهة من الأفراد ـ بدءا بعمـال النسيج وهـواة الأسلحة وانتهاء بالمحاربين القدمـاء وأصحاب المزارع العائلية ـ التـي ترص الصفوف معـا للدفاع عـن مصالحها؛ بـين الذين يستخدمـون القوة الاقتصاديـة لتضخيم نفوذهم السياسـي إلى درجة تتجاوز عددهـم، وأولئك الذين يكتفـون بالسعي لتجميع أصواتهم بهدف ترجيح كفة ممثليهم. المجموعة الأولى تدمر فكرة الديمقراطية ذاتها. والثانية تقبع في صميمها.

ومـع ذلك، لا يكون تأثير جماعات الضغط التمثيلية على المرشحين للمجلس كبيرا علـى الـدوام. إذ لا يمكـن الاعتماد عليهـا وحدها للحفـاظ على العضويـة الفاعلة، والإبقـاء على تدفق التبرعات، وسماع صوتك وسـط الضجيج. فهذه الجماعات التي تمارس تأثـيرا في السياسة ليست مصممة لترويج وتشجيـع المصلحة العامة. وهي لا تبحث عن أكثر المرشحين عمقا في التفكير أو كفاءة وأهلية أو اتساعا في الأفق لدعمه وتأييـده، بل تركز على مجموعة ضيقة من الاهتمامـات ـ المعاشات التقاعدية، مثلا، أو دعـم منتجاتها، أو تأييد قضيتهـا. وبتعبير أبسط لديها دوافع شخصية أو مصالح أنانية وتريد منك، أنت المسؤول المنتخب، أن تحرص عليها بمساعدتها.

على سبيل المثال، خلال حملتي الانتخابية التمهيدية، لا بد أنني أجبت عن خمسين استبيانا على أقل تقدير. لم يكن أي منها غامضا أو مراوغا، فقد كانت تحتوي، نمطيا، لائحـة من عشرة أسئلـة أو اثني عشر سؤالا، تتبع الخطـوط التالية: إذا انتخبت، هل تتعهد بإبطال القانون الذي أدى إلى طرد الأرامل والأيتام إلى الشارع؟.

أملـى علي ضيق الوقت الاكتفاء بالإجابة عـن الاستبيانات التي أرسلتها المنظمات القادرة فعلا على دعمي وتأييدي والموافقة على برنامجي (وفقا لسجلي في التصويت، لم أحـظ بدعـم وتأييد جمعية الأسلحـة الوطنية ولا جمعية الحـق في الحياة، مثلا)، ولذلـك أمكنني الإجابة بنعم عن معظم الأسئلة دون الشعور بالانزعاج. لكن كثيرا ما كنت أصـادف سؤالا يدعوني إلى التوقف والتأمل. فقد أوافق مع إحدى النقابات على

الحاجة إلى فرض معايير العمل والبيئة على قوانيننا التجارية، لكن هل أعتقد أن من الضروري إلغاء اتفاقية «نافتا»؟ ربما أوافق على ضرورة أن تحتل الرعاية الصحية الشاملة قمة أولويات الأمة، لكن هل يستلزم ذلك أن يمثل التعديل الدستوري أفضل طريقة لتحقيق ذلك الهدف؟ وجدت نفسي أتجنب إعطاء إجابة حاسمة عن مثل هذه الأسئلة وأشرح في الهوامش الصعوبة التي تشملها الخيارات السياسية. وكان أفراد طاقمي يهزون رؤوسهم استياء. فإعطاء إجابة خاطئة واحدة برأيهم سوف تجعل الموافقة، والعمال، واللوائح تذهب كلها إلى المنافس. وفكرت بأن إرضاءهم سيؤدي إلى وضعي في إسار نمط التطاعن الحزبي الانعكاسي الذي وعدت الناخبين بالمساعدة على إنهائه.

قل شيئا خلال الحملة الانتخابية وافعل نقيضه بعد الفوز، وستصبح سياسيا نمطيا بوجهين ولسانين.

فقدت بعض المؤيدين بسبب عدم تقديم الإجابة المرغوبة. لكن في بعض الأحيان، فاجأتنا إحدى المجموعات وأعطت موافقتها وتأييدها على الرغم من الإجابة المنفرة.

وفي أحيان أخرى لم يكن من المهم كيف تجيب عن أسئلة الاستبيان. فإضافة إلى السيد هول، كان أقوى منافس لي في الانتخابات التمهيدية لمجلس الشيوخ الأمريكي المفتش المالي لولاية الينوي، دان هاينز، وهو رجل طيب وموظف كفء كان والده رئيسا لمجلس شيوخ الولاية، ومستشارا لمقاطعة كوك، وعضوا ورئيسا للجنة الوصاية، وعضوا في اللجنة الوطنية الديمقراطية، وواحدا من أكثر الشخصيات السياسية نفوذا وصلات في الولاية. حتى قبل أن يدخل السباق، نال دان تأييد 85 من الزعماء الديمقراطيين في المقاطعات (من أصل 102)، وأغلبية زملائي في مجلس شيوخ الولاية، ومايك ماديغان الذي كان رئيسا لمجلس النواب وزعيما للحزب الديمقراطي في ولاية الينوي. أما مراجعة قائمة المؤيدين على موقع دان على الشبكة الإلكترونية فتشبه مشاهدة لائحة الأسماء التي يقدم لها المخرج الشكر في نهاية فيلمه السينمائي ـ طويلة إلى حد أنك تمل، فتغادر الصالة قبل أن تنتهي!

على الرغم من ذلك كله، تشبثت بأمل الحصول على بعض التأييد والمناصرة، خصوصا من المنظمات العمالية. فقد بقيت طوال سبع سنين حليفها في مجلس شيوخ الولاية، ورعيت العديد من مشروعات قوانينها ودافعت عن قضيتها في المجلس. عرفت أن اتحاد العمال الأمريكي ومجلس المنظمات الصناعية أيد أولئك الذين تمتعوا بسجل مؤثر من التصويت لصالحهما. لكن مع استمرار الحملة بدأت تحدث أمور غريبة وغير عادية. فقد عقد سائقو الشاحنات جلسة التأييد والمصادقة في شيكاغو في اليوم الذي كان علي الذهاب إلى سبرينغفيلد للتصويت؛ ورفضوا تغيير الموعد، فحصل السيد هاينز على تأييدهم وموافقتهم حتى دون الاستماع إلي. وعند حضور حفل عمالي خلال معرض ولاية الينوي، أبلغنا بحظر لافتات الحملات الانتخابية؛ وما إن وصلنا أنا وطاقم المساعدين، حتى اكتشفنا أن صور وملصقات هاينز تملأ القاعة. وفي أمسية جلسة اتحاد العمال الأمريكي ومجلس المنظمات الصناعية، لاحظت أن عددا من أصدقائي العماليين يتجنبون النظر إلي عندما دخلنا القاعة. فتقدم رجل عجوز يرأس واحدا من أكبر فروع الاتحاد المحلية وربت ظهري.

قال وعلى وجهه ابتسامة آسفة: «ليس في الأمر شيء شخصي. فالعلاقة بيني وبين توم هاينز تعود إلى خمسين عاما. نشأنا في الحي ذاته وننتمي إلى الأبرشية نفسها. لقد شاهدت بعيني داني ينمو ويكبر».

قلت له: إنني أتفهم موقفه.

«ربما يمكنك أن تحل محل داني حين ينتقل إلى المجلس، ما رأيك؟ ستكون مراقبا ماليا ممتازا»

ذهبت إلى مساعدي وأخبرتهم بأننا لن نحظى بموافقة وتأييد الاتحاد العمالي ومجلس المنظمات الصناعية.

مرة أخرى تحسنت الأمور. فقد انشق زعماء عدد من أكبر نقابات العاملين في الخدمات ـ اتحاد الينوي للمدرسين والنقابات الممثلة للعاملين في النسيج والفنادق وخدمات الأطعمة الجاهزة ـ واختاروا تأييدي بدلا من هاينز، وثبت أن دعمهم كان

حاسما في إعطاء حملتي بعض الثقل والأهمية. كانت مخاطرة من جانبهم؛ فلو خسرت، فستدفع هذه النقابات الثمن وتفقد مصداقيتها وتأييد أعضائها.

ولذلك أدين بالفضل لهذه النقابات. حين يتصل بي زعماؤها أبذل قصارى جهدي للاتصال بهم فورا. ولا أعد ذلك أمرا مفسدا بأي حال؛ فلا مانع عندي من الشعور بالالتزام تجاه العاملين في الرعاية الصحية المنزلية الذين ينظفون مبولات المرضى كل يوم مقابل أجر لا يتجاوز الحد الأدنى كثيرا، أو تجاه المدرسين في بعض من أصعب وأقسى المدارس في البلاد، وبعضهم يضطر لشراء الأقلام والدفاتر لطلابهم من جيبهم الخاص في بداية كل عام دراسي. لقد دخلت معترك السياسة دفاعا عن هؤلاء المواطنين ويسرني أن تذكرني النقابة بكفاحهم ومعاناتهم.

لكنني أعرف أيضا أن هذه الالتزامات والواجبات سوف تتصادم يوما ما مع التزامات وواجبات أخرى ـ تجاه أطفال الأحياء الداخلية غير القادرين على القراءة مثلا، والأطفال الذين لم يولدوا بعد ومع ذلك تثقلهم الديون، وبدأت تظهر آثارها ـ اقترحت مثلا دفع علاوات إضافية للمدرسين، وطالبت برفع كفاءة معايير إنتاج الطاقة إلى أفضل معدل فيما يتعلق بحجم الوقود المستهلك، على الرغم من معارضة أصدقائي في اتحاد العاملين في صناعة السيارات. أحب أن أقول لنفسي إنني سأستمر في موازنة القضايا وفقا لجدارتها ـ مثلما آمل أن يوازن منافسي الجمهوري التعهد بعدم فرض ضرائب جديدة أو معارضة أبحاث الخلايا الجذعية الذي أطلقه قبل الانتخابات في ضوء ما هو أفضل للوطن ككل، بغض النظر عما يطلبه أنصاره ومؤيدوه. آمل أن أستطيع دوما مقابلة أصدقائي النقابيين وشرح السبب المنطقي وراء موقفي، وكيف يتسق وينسجم مع قيمي ومبادئي ومصالحهم على المدى الطويل.

لكن أظن أن الزعماء النقابيين لن يروا الأمور دوما بهذه الطريقة. فلربما يأتي زمن يعدون موقفي خيانة. وينبهون الأعضاء إلى أنني بعت قضيتهم. وقد أتلقى رسائل حانقة واتصالات هاتفية غاضبة. وربما لن يؤيدوا ترشيحي في المرة القادمة.

إذا تكرر حدوث ذلك فربما تخسر السباق لأنك أغضبت ناخبين مهمين، أو تجد أنك تدافع عن نفسك أمام هجوم يشنه عليك متحد جديد يتهمك بالخيانة،

فتبـدأ بخسارة شجاعتك على المواجهة. فتسـأل نفسك ما الذي يمليه الضمير الحي بالضبـط: أن تتجنب السقوط في شـرك «المصالح الخاصة»أم تتفـادى الإساءة إلى أصدقائك؟ الجواب ليس واضحا. ولذلك تبدأ التصويت كما لو كنت تجيب عن أسئلة استبيـان. ولا تفكـر بمواقفك بشكل متعمق قبـل اتخاذ القرار. بل تضـع إشارة على مربع نعم وتتابع العملية.

السياسيـون يقعون في أسر المتبرعين الأثرياء أو يخضعون لنفوذ جماعات الضغط التمثيليـة ـ تلك هـي العبارة الثابتـة في التقارير المتعلقة بالسياسـة المعاصرة، حبكة الروايـة المتأصلة في كل تحليل يتناول ما أصاب ديمقراطيتنا وأين مكمن الخطأ فيها. لكن بالنسبة للسياسي الذي يقلقه أمر الحفاظ على منصبه، هنالك قوة ثالثة تدفعه وتجذبه، وتشكل طبيعة الجدل السياسي وتحدد مدى ومجال ما يستطيع وما لا يستطيع أن يفعلـه، والمواقف التي يمكنه ولا يمكنه اتخاذها. قبل أربعين أو خمسين سنة، كانت هـذه القوة مكونة من جهاز الحزب: زعماء المدن الكبرى، المختصون بتنظيم وترتيب الأمـور وتذليـل العقبات أمـام السياسيين، سماسرة السلطـة في واشنطن الذين كان بمقدورهم تحطيم الحيـاة المهنية لأي سياسي أو مسؤول بمخابرة هاتفية. هذه القوة تتجسد اليوم في وسائل الإعلام.

ثمة اعتراض هنا: طوال مدة ثلاث سنوات، منذ أعلنت ترشيحي لمجلس الشيوخ حتى انتهـاء عامي الأول كعضو فيه، استفدت من متابعـة صحفية إيجابية غير عادية، وغير مستحقة في بعض الأحيان. ومما لا شك فيه أن جزءا من ذلك يعود إلى استبعاد فوزي في الانتخابات التمهيدية، إضافة إلى كوني مرشحا أسود له خلفية غريبة. ولربما لذلك علاقـة بأسلوبي الاتصالي، الذي يمكن أن يصبح استطراديا ومترددا ومسهبا (وكثيرا ما ذكرني المساعدون وميشيل بذلك)، لكن ربما استقطب تعاطف الطبقة المثقفة.

فضـلا عـن ذلك، حتى حـين أظهر في نهايـة القصص السلبية، تميـز المراسلون السياسيـون الذين تعاملت معهم بالصراحة والصدق والاستقامة في السلوك عموما. فقـد كانوا يسجلون أحاديثنـا، ويحاولون تقديم سياق العبـارات والبيانات التي أدلي بها، ويتصلون بي للحصول على رد كلما تعرضت للانتقاد.

إذن، على الصعيد الشخصي على الأقل، ليس لدي سبب للشكوى أو التذمر. لكن ذلك لا يعني أنني قادر على تجاهل الصحافة. لأنني شاهدت بأم عيني كيف وضعتني في قالب يصعب الارتقاء إلى مستواه، وأدركت مدى السرعة التي يمكن فيها لهذه العملية أن تشتغل بالاتجاه المعاكس.

الحساب البسيط يفسر كل شيء. في الاجتماعات التسعة والثلاثين التي عقدتها مع الأهالي المحليين خلال عامي الأول في الكونغرس، تراوح معدل عدد الحضور في كل اجتماع بين 400 ـ 500 شخص، وهذا يعني أنني تمكنت من الالتقاء بزهاء خمسة عشر ألفا أو عشرين ألف شخص. وإذا حافظت على هذه الوتيرة خلال المدة الباقية لي في المجلس، فسوف أقابل بشكل مباشر وشخصي قرابة خمسة وتسعين ألفا أو مائة ألف شخص من الناخبين بحلول موعد الانتخابات.

وبالمقابل، يمكن لإعلان مدته ثلاث دقائق على أرخص محطة إخبارية محلية في شيكاغو أن يصل إلى مئتي ألف شخص. بكلمات أخرى، أعتمد اعتمادا كليا تقريبا، مثل كل سياسي على المستوى الاتحادي، على وسائل الإعلام للوصول إلى الناخبين. فهي المصفاة المرشحة التي تفسر عبرها الأصوات التي أدلي بها، وتحلل العبارات والبيانات التي أعلنها، وتفحص المعتقدات التي أؤمن بها. فما يتعلق بعامة الناس على الأقل، أنا أكون على الصورة التي ترسمها وسائل الإعلام لي. وأقول ما تقوله عني.

يأتي تأثير وسائل الإعلام في سياستنا بصيغ وأشكال شتى. أما ما يحظى بالاهتمام الأكبر في هذه الأيام فهو نمو الصحافة الحزبية التي لا تعرف الخجل أو التردد: الأحاديث الإذاعية، «فوكس نيوز»، افتتاحيات الصحف، برامج المقابلات مع الضيوف في المحطات الكبلية، وأخيرا مواقع المدونات (blogger) على الإنترنت، وجميعها تتبادل الشتائم والسباب والاتهامات والشائعات طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع. ومثلما لاحظ الكثيرون، فإن هذا الأسلوب من صحافة الرأي ليس جديدا فعلا؛ فهو يعلّم بطرق عديدة على عودة إلى التقليد المهيمن في الصحافة الأمريكية، مقاربة للأخبار رعاها وغذاها ناشرون من أمثال وليام راندولف هيرست

والكولونيل مكورميك، قبل ظهور فكرة الصحافة الموضوعية «المعقمة» بعد الحرب العالمية الثانية.

ومع ذلك، يصعب إنكار حقيقة أن الغضب والصخب، وتضخمهما عبر التلفزيون والإنترنت، يزيدان خشونة وفظاظة وابتذال الثقافة السياسية، ويهيجان المشاعر ويساعدان على تنامي الشك والريبة. ويمكن للنقد اللاذع القارس المتواصل أن ينهك الروح ويرهق النفس، بغض النظر هل نعترف نحن السياسيون بذلك أم لا. ومن الغريب أن التهجم الوقح والفظ لا يثير القلق كثيرا؛ فإذا استمتع مستمعو روش لامبرت حين يدعوني «أسامة أوباما»، فإن موقفي هو: دعهم يستمتعون. لكن المنتقدين الأكثر تعقيدا وتطورا هم القادرون على اللسع والإيذاء، لأن لديهم مصداقية أكبر أمام الرأي العام من ناحية، وبسبب مهارتهم في الرد على كلماتك وجعلك تبدو كالمغفل، من ناحية أخرى.

على سبيل المثال، ألقيت خطبة مدتها خمس دقائق في نيسان/ أبريل 2005، في برنامج بمناسبة افتتاح مكتبة لينكولن الرئاسية الجديدة في سبرينغفيلد، قلت فيها إن إنسانية ابراهام لينكولن، ولا عصمته، هما من السمات والخصال التي جعلته مقنعا ومفحما إلى هذه الدرجة. وأضفت في جزء من ملاحظاتي إن «في نهوض لينكولن من الفقر، ودراسته الخاصة خارج المدارس والجامعات، وتضلعه في نهاية المطاف من اللغة والقانون، وفي قدرته على مغالبة الخسارة الشخصية والحفاظ على التصميم والإرادة في مواجهة الهزائم المتكررة ـ في ذلك كله، نرى عنصرا جوهريا للشخصية الأمريكية، إيمانا بأننا قادرون باستمرار على إعادة صنع أنفسنا لتناسب أحلامنا الكبرى»

بعد بضعة شهور، سألني محرر مجلة «تايم»إن كنت مهتما بكتابة مقالة في عددها الخاص عن لينكولن. لم يكن لدي وقت لكتابة شيء جديد، لذلك سألت محرري المجلة هل يقبلون نشر خطبتي. وافقوا لكن مع إضافة بعض اللمسات الشخصية ـ التطرق مثلا إلى تأثير لينكولن في حياتي. وتمكنت بين اللقاءات والاجتماعات من إضافة بعض التغييرات على عجل. الفقرة السابقة مثلا أصبحت: «في نهوض لينكولن من الفقر،

وتضلعه في نهاية المطاف من اللغة والقانون، وقدرته على مغالبة الخسارة الشخصية، والحفاظ على التصميم والإرادة في مواجهة الهزائم المتكررة ـ في ذلك كله، لم يكتف بتذكيري بنضالي وكفاحي فقط..».

ما إن ظهرت المقالة، حتى جاء الرد من بيغي نونان، كاتبة خطب رونالد ريغان، والصحفية في «وول ستريت جورنال» ففي مقالة بعنوان «غرور وتباهي الحكومة»، كتبت تقول: «في هذا الأسبوع يأتي السيناتور الحذر سابقا، باراك أوباما، ليرفرف بجناحيه في مجلة تايم ويؤكد أنه يشبه كثيرا ابراهام لينكولن، بل أفضل منه» ثم أضافت: «لا عيب في سيرة باراك أوباما، لكنها منطقة حرة من الأكواخ الخشبية*. وهي حتى الآن منطقة حرة من العظمة أيضا. ولو استمر في الحديث عن نفسه على هذا النحو فسوف تكون كذلك على الدوام».

أوه!

بالطبع، يصعب معرفة هل ظنت السيدة نونان فعلا أنني أقارن نفسي بلينكولن، أم هل استمتعت بمهاجمتي بهذا الأسلوب الرشيق البليغ. ووفقا لمعايير الانتقادات الصحفية، كانت المقالة معتدلة ـ ولم تكن دون وجه حق كليا.

ومع ذلك، تذكرت ما يعرفه المتمرسون من زملائي ـ كل عبارة أقولها تخضع للفحص والسبر والتدقيق والتشريح والتحليل من الخبراء والمطلعين والعارفين، وتفسر بأساليب خارجة عن سيطرتي، وتمشط بحثا عن الأخطاء المحتملة أو العبارات المغلوطة أو الحذف والإغفال أو التناقضات التي يسجلها الحزب المعارض لتظهر في إعلان تلفزيوني كريه فيما بعد. في بيئة يمكن فيها لملاحظة طائشة واحدة أن تولد سمعة سيئة لا تمحوها سنوات من السياسات الحصيفة والمتروية، يجب ألا يفاجئني أن تستقصى الدعابات والنكات في «كابيتول هيل»، ويشتبه بالسخرية والمفارقة، وترفض التلقائية والعفوية، وتعد العاطفة الجياشة انفعالا محفوفا بالخطر. بدأت أتساءل عن المدة التي يحتاجها السياسي لجعل ذلك كله جزءا من ذاته؛ قبل أن تسكن لجنة

* سبعة من الرؤساء الأمريكيين (بينهم لينكولن) ولدوا في أكواخ خشبية. ثم تحول الكوخ الخشبي إلى رمز يمثل الارتباط بالشعب، بل أطلق الجمهوريون على أنفسهم اسم «جمهوريي الأكواخ الخشبية». (م)

الكتـاب والمحررين والرقباء في جمجمته؛ قبل أن تـدون اللحظات «الخفية»، بحيث لا يغص أو يكح أو يعبر عن غضبه إلا في اللحظة المناسبة.

كم سأحتاج من وقت كي أبدو كالسياسي؟

هنالـك درس آخر يجب تعلمـه: حالما ضربت السيـدة نونان ضربتهـا، انتشرت مقالتهـا عبر الإنترنت كالنـار في الهشيم، وظهرت على كل موقـع يميني على الويب كدليـل يثبت كم أنـا متغطرس ومغفـل وسطحي (ظهر على هذه المواقـع الاستشهاد الذي انتقته السيـدة نونان فقط، لا المقالة ذاتها). وبهذا المعنى، ألمحت الحادثة إلى جانـب أكثر مكرا وضـررا في وسائل الإعلام الحديثة ـ كيـف يمكن لحكاية سردية، تتكـرر مـرارا وتلقـى في الفضاء الإلكـتروني لتنطلـق بسرعة الضـوء، أن تصبح في نهايـة المطاف حقيقة راسخة لا شـك في صحتها؛ وكيف تستقر الصور الكاريكاتورية السياسيـة وشـذرات الحكمة التقليديـة في أدمغتنا دون أن نجد حتـى الوقت الكافي لتفحصها.

علـى سبيل المثـال، يصعب العثور على أي إشـارة إلى الديمقراطيين هذه الأيام لا تلمـح إلى أننـا «ضعفاء» و«لا نمثل شيئـا» في حين أن الجمهوريين، مـن ناحية أخرى، «أقويـاء» (وإن اتصفوا بشيء من الوضاعـة)، وبوش «حاسم ولا يعرف التردد» بغض النظـر عن عدد المرات التـي غير فيها رأيه. وأي تصويـت أو خطبة لهيلاري كلينتون تخـرج على النمـط المعياري تصنف فـورا في خانـة التكتيكات المحسوبـة والمراوغة؛ في حـين أن أي خطوة مماثلة مـن جانب جون مكين تلمع وتصقـل مؤهلاته المستقلة. ووفقـا لأحد المراقبين المشهورين بتهكمهـم اللاذع، يجب أن يسبق اسمي في أي مقالة عبـارة «النجم البازغ»، وكأن ذلك أصبح «قانونا ساريـا» ـ مع أن مقالة نونان وضعت الأرضيـة لحبكة روائية مختلفة وإن تكن مألوفة أيضـا: حكاية محذرة من شاب يأتي إلى واشنطـن، ويفقد صوابـه بسبب الشهرة والدعاية، ويصبـح في نهاية المطاف إما داهية يضع الخطط المحسوبة لينال بغيته أو حزبيا متشددا (إلا إذا تدبر أمر الانتقال بصورة حاسمة إلى معسكر المستقلين).

تساعد بالطبع آلة العلاقات العامة للسياسيين وحزبهم على تغذية هذه السرديات، وخلال الدورات الانتخابية الأخيرة على أقل تقدير، تفوق الجمهوريون تفوقا كبيرا على الديمقراطيين في «نظام إرسال الرسائل» هذا (وتلك كليشيه مبتذلة لكنها تنطبق علينا نحن الديمقراطيون للأسف). تلفيق الحكايات ينجح، لأن وسائل الإعلام ترحب به. فكل مراسل في واشنطن يعمل تحت ضغوط يمارسها عليه المحررون والمنتجون، الذين يتعرضون بدورهم لضغوط الناشرين أو مديري الشبكة الإعلامية، الذين تشغلهم تقويمات وتقديرات الأسبوع الماضي أو أرقام التوزيع في السنة الأخيرة، ويحاولون البقاء في ميدان يفضل فيه الناس ألعاب الكمبيوتر ومشاهدة التلفزيون. وفي سبيل صنع عناوين الأخبار والحفاظ على حصة السوق وتغذية المحطات الإخبارية الكبلية، يبدأ المراسلون التحرك على شكل جماعات، ويشتغلون على النشرات الإخبارية ذاتها، والمقالات والأرقام نفسها. وفي هذه الأثناء، لا يرفض مستهلكو الأخبار الذين تشغلهم شؤون حياتهم اليومية الروايات المبتذلة والأخبار المكررة. فهي لا تتطلب تفكيرا عميقا أو وقتا طويلا؛ لكنها سريعة وسهلة الهضم. وقبولها أمر يسير على الجميع.

يساعد عنصر السهولة والتيسير هذا أيضا في تفسير السبب الذي يجعل الموضوعية، حتى بين أشد المراسلين دقة وتمحيصا وأمانة، تعني غالبا نشر وجهات نظر الأطراف المختلفة في الجدل دون تمييز المخطئ من المصيب. القصة النمطية تبدأ عادة كما يلي: «ذكر البيت الأبيض اليوم أن من المتوقع انخفاض العجز بمقدار النصف بحلول عام 2010، على الرغم من التخفيضات الأخيرة على الضرائب» تتبع هذا التمهيد بعدئذ شواهد تقتبس من محلل ليبرالي ينتقد الأرقام التي ينشرها البيت الأبيض، ومحلل محافظ يدافع عنها. هل أحدهما أكثر مصداقية من الآخر؟ هل هناك محلل مستقل يدلنا على حقيقة الأرقام؟ من يعرف ومن يعلم؟ نادرا ما يجد المراسل الوقت الكافي لمثل هذه التفاصيل؛ القصة لا تدور فعلا حول مزايا تخفيض الضرائب أو أخطار العجز في الميزانية، بل عن الجدل الخلافي بين الحزبين. وبعد بضع فقرات، يمكن للقارئ استنتاج أن الجمهوريين والديمقراطيين يتشاجرون على التوافه مرة أخرى، فيتحول إلى صفحة الرياضة، حيث الحبكة أقل توقعا ويمكن تعرّف الرابح من الخاسر في سجل النتائج.

في الحقيقة، فإن جزءا مما يجعل تجاور وتغاير النشرات الإخبارية المتنافسة على هذه الدرجة من الإغراء للمراسلين أنهما يغذيان ذلك الاستعداد الصحفي القديم ـ الصراع الشخصي. فمن الصعب إنكار حقيقة أن التهذيب السياسي شهد انحطاطا وتراجعا في العقد الماضي، وأن الحزبين يختلفان اختلافا حادا على قضايا السياسة الكبرى. لكن جزءا من التراجع والانحطاط على الأقل يعود إلى حقيقة أن التهذيب يثير الملل والسأم من وجهة نظر الصحافة. فشاهدك لا يثير ولا ينفع إذا قلت: «أرى وجهة نظر الآخر» أو «القضية معقدة فعلا» لكن حاول شن الهجوم ولن تبتعد عنك الكاميرات. في كثير من الأحيان، يبذل الصحفيون ما بوسعهم للتهييج والإثارة، ويطرحون أسئلة بطريقة تستفز جوابا يثير الغضب ويهيج المشاعر. أحد مراسلي التلفزيون في شيكاغو اشتهر بتلقيم محاوره الشاهد الذي يريده بحيث تبدو المقابلة كأفلام بوت وكوستيلو التهريجية.

كان يسألني مثلا: «هل تشعر بأن قرار الحاكم أمس قد غدر بك؟».

«لا. لقد تحدثت معه، وأنا واثق من قدرتنا على حل خلافاتنا قبل نهاية الجلسات»

«طبعا.. لكن هل تشعر بأنه غدر بك؟».

«لا أحب استخدام هذه الكلمة. فوفقا لرأيه..».

«لكن ألا يعد ذلك غدرا من جانبه؟».

التلفيق، وتضخيم الخلاف، والبحث العشوائي عن الفضائح والأخطاء والعثرات ـ التأثير المتراكم لذلك كله يؤدي إلى تآكل أي معايير متفق عليها للحكم على الحقيقة. هنالك قصة مدهشة، وربما منحولة، يتداولها الناس عن دانييل باتريك موينيهان، السيناتور (الراحل) اللامع واللاذع والخارج على التقاليد السائدة والأعراف السائرة (من نيويورك). انخرط موينيهان على ما يبدو في جدل محتدم مع أحد زملائه حول قضية، فقال الزميل دون تفكير بعد أن استشعر أن حجة خصمه مفحمة: «حسنا، ربما لا توافقني، لكنني ملتزم رأيي»،فرد عليه موينيهان ببرود «أنت ملتزم رأيك، لكنك لا تلتزم حقائقك».

لم يعد توكيد موينيهان ساري المفعول. لم يعد لدينا مثل هذه الشخصيات المرجعية، لا والتر كرونكايت ولا إدوارد مورو، نستمع جميعا إليهما ونثق بقدرتهما على فرز الدعاوى المتناقضة والمزاعم المتضاربة. بدلا من ذلك، هنالك وسائل الإعلام المتشظية إلى ألف قطعة، لكل منها نسختها الخاصة عن الحقيقة والواقع، وكل منها يزعم الولاء والإخلاص لأمة منقسمة ومتشظية. فاعتمادا على منظورك المفضل يعد تسارع تغير المناخ العالمي خطرا أو غير محفوف بالخطر؛ والعجز في الميزانية يتضخم أو يتقلص.

والظاهرة ليست مقصورة على التقارير الإعلامية المتعلقة بالقضايا والمسائل المعقدة. ففي أوائل عام 2005، نشرت مجلة «نيوزويك» مزاعم تقول إن السجانين والمحققين الأمريكيين في معسكر غوانتانامو استفزوا المعتقلين وأساؤوا معاملتهم بطرق عديدة، منها رمي المصحف في المرحاض. البيت الأبيض أصر بعناد على أن القصة لا أساس لها من الصحة. وفي غياب الأدلة الدامغة وفي أعقاب الاحتجاجات العنيفة في باكستان على ما نشر، اضطرت المجلة إلى تكذيب نفسها بنفسها والتراجع عن الخبر. لكن بعد عدة شهور، أصدر البنتاغون تقريرا أشار إلى أن بعض السجانين والمحققين الأمريكيين في غوانتانامو مارسوا في عدد من الحالات نشاطا غير لائق ــ شمل قيام إحدى المجندات الأمريكيات بتلطيخ وجوه المعتقلين بدم الحيض كما زعمت خلال الاستجواب، وفي إحدى المناسبات على الأقل تبول أحد الحراس على القرآن وعلى أحد الأسرى. فانبرت «فوكس نيوز» للدفاع في أصيل ذلك اليوم: «لم يجد البنتاغون دليلا يثبت رمي القرآن في المرحاض».

أعرف أن الحقائق وحدها لا يمكن حل نزاعاتنا وخلافاتنا السياسية. فآراؤنا فيما يتعلق بالإجهاض مثلا لا يقررها علم تطور الأجنة، وحكمنا فيما يتصل بهل/ ومتى نسحب جنودنا من العراق مؤسس بالضرورة على الاحتمالات. لكن في بعض الأحيان هنالك أجوبة أكثر أو أقل دقة؛ وأحيانا هنالك حقائق لا يمكن تلفيقها أو تحريفها، فإثبات الحجة على أن المطر يهطل لا يحتاج إلا إلى الخروج إلى الهواء الطلق. أما غياب حتى شبه الاتفاق على الحقائق فيساوي بين الآراء، ويلغي بذلك

أسس التسويات الحصيفة. ولا يكافئ المصيبين، بل أولئك الذين يجعلون حجتهم أكثر صخبا وضجيجا وتكرارا وعنادا، مع أفضل ستارة في الخلفية (مثل العاملين في المكتب الصحفي للبيت الأبيض).

يفهم السياسي اليوم ذلك كله. لربما لا يكذب متعمدا، لكنه يعرف أن الصادقين لا ينالون مكافآت عظيمة على صدقهم، خصوصا حين تكون الحقيقة معقدة أو جارحة. فقد تسبب الحقيقة الفزع والانزعاج؛ وتستفز الهجوم والانتقاد؛ ولن تتحلى وسائل الإعلام بالصبر لفرز الحقائق كلها، ولذلك لن يعرف عامة الناس الفارق المميز بين الحقيقة والكذب. ما يهم آنئذ هو الموقف ـ البيان المعلن حول قضية بحيث يتجنب الجدل الخلافي أو يولد الدعاية المطلوبة، الموقف الذي يناسب الصورة المرسومة للسياسي التي روجها مسؤولو المكتب الصحفي ويلائم إحدى الروايات التي ابتكرتها وسائل الإعلام للسياسة عموما. قد يصر السياسي، بسبب استقامته ونزاهته، على قول الحقيقة كما يراها. لكنه يعرف أن إيمانه الفعلي بمواقفه أقل أهمية من الصورة الظاهرية لإيمانه أمام الملأ؛ وأن الكلام الصريح المباشر أقل أهمية من الصورة التي يبدو عليها على شاشة التلفزيون.

أعرف من مشاهداتي أن هنالك عددا لا يحصى من السياسيين الذين تجاوزوا هذه العقبات وحافظوا على استقامتهم ونزاهتهم وصدقهم، رجال ونساء جمعوا مساهمات وتبرعات الحملات الانتخابية دون أن يصيبهم الفساد بآفته، وحصلوا على الدعم والتأييد دون أن تأسرهم المصالح الخاصة، وتعاملوا مع وسائل الإعلام دون خسارة إحساسهم بالذات. لكن ثمة عقبة أخيرة، لا يمكنك تجنبها كلية ما أن تستقر في واشنطن، عقبة تجعل قسما كبيرا على الأقل من ناخبيك يسيؤون الظن بك ـ ألا وهي الطبيعة غير المرضية تماما للعملية التشريعية.

لا أعرف عضوا واحدا في المجلس لا يعاني باستمرار قلقا من التصويت على القرارات ومشروعات القوانين. هنالك أوقات يشعر فيها أن تشريعا معينا يعد صائبا بوضوح لا لبس فيه ولا يحتاج إلى جدل كبير (يخطر على البال هنا تعديل جون مكين الذي يحظر التعذيب بواسطة الحكومة الأمريكية). في أوقات أخرى، يبدو

مشـروع قانون معين في قاعة المجلس أحـادي الجانب بشكل سافر، أو هزيل الصياغة والتصميم إلى حد يتساءل عنده المرء كيف يمكن لمن يقدمه ويرعاه أن يخفي أمارات التأثر وحتى الابتسام خلال الجدل حوله.

لكـن في معظـم الأوقـات، يكـون التشريع خلطـة عكرة، نتـاج مئة مـن التسويات والتنـازلات الصغيرة والكبـيرة، توليفة تجمع أهداف السياسـة المشروعة، والمساعي لجذب التأييد والاهتمام، والخطط التنظيمية المتعجلة والمرتجلة، والأساليب القديمة القائمـة على استمالة الأعضاء وإغراء الناخبين والحصول على تأييدهم. في كثير من الأحيـان، حين كنت أقرأ مشروعات القوانين المعروضة على المجلس في الأشهر القليلة الأولى مـن انتخابي، واجهتني حقيقة أن الأمـور المبدأية والأخلاقية أقل وضوحا مما حسبـت؛ وأن التصويـت بنعم أو لا سيخلـف شيئا من الندم والأسـف في نفسي. فهل أصوت لمصلحة مشروع قانون الطاقة الذي يشمل الشرط الذي وضعته لدعم وتشجيع إنتـاج الوقـود البديل وتحسين الوضع القائم حالياً، مـع أن ذلك ليس كافيا أبدا لمهمة تقليـل اعتمـاد أمريكا على النفـط المستورد؟ هل أصوت ضد إحـداث تغيير في قانون الهـواء النظيـف الذي سيضعـف الأنظمة والقواعد في بعض المناطـق لكن يعززها في أخـرى، ويوجد نظامـا أكثر قدرة على التوقـع لمراقبة امتثال الشـركات؟ ماذا لو زاد مشـروع القانـون التلوثَ لكن مـول تقانة الفحـم النظيف ووفر الوظائـف في المناطق الفقيرة من الينوي؟

مرة بعد أخرى أجد نفسي أدرس الأدلة وأمحص البينات، وأقارن المزايا والمثالب، بأقصـى مـا أستطيع ضمـن الوقت المحدد المتـاح. وسيبلغنـي طاقـم المساعدين أن الرسائـل البريدية والمكالمات الهاتفية منقسمة الرأي بالتساوي وأن جماعات الضغط التمثيليـة على الجانبين تسجل النقاط. ومع اقتراب ساعة التصويت، كثيرا ما أتذكر فقرة كتبها جون كنيدي قبل خمسين سنة في كتابه «سير في الشجاعة»:

> لا يوجد سوى قلة من الأشخاص (أو لا يوجد أحد على الإطلاق) يواجهون لحظة الحسـم النهائي المرعبة للقـرار كتلك التي يواجههـا عضو مجلس الشيـوخ عندمـا يجري تفقـد أسماء الأعضـاء الحاضريـن. فلربما يريد

مزيدا من الوقت لقراره ـ يعتقد أن من الضروري قول شيء لصالح الطرفين ـ أو أن إجراء تعديل بسيط يمكن أن يزيل جميع الصعوبات، لكنه لحظة الحسم لا يستطيع أن يختبئ أو يراوغ أو يماطل، بل يشعر أن ناخبيه يربضون، كالغراب في قصيدة آلان بو، فوق منبره ويصيحون بصوت أجش «لا تكررها أبدا» حين يدلي بالصوت الذي يغامر بمستقبله السياسي.

قد يبدو ذلك دراميا قليلا. ومع ذلك لا يوجد عضو في مجلس الشيوخ، على مستوى الولاية أو المستوى الاتحادي، محصن من مثل هذه اللحظات الصعبة ــ وهي أسوأ وأشد صعوبة حين يكون الحزب في المعارضة. فحين تكون عضوا في الأغلبية، سيكون بحوزتك بعض المدخلات فيما يتعلق بأي مشروع قانون مهم قبل الوصول إلى قاعة المجلس. يمكنك أن تطلب من رئيس اللجنة إضافة العبارات التي ترضي ناخبيك أو حذف تلك التي تغضبهم. بل تستطيع أن تطلب من زعيم الأغلبية أو مقدم وراعي المشروع أن يؤجل التصويت إلى ما بعد التوصل إلى تسوية تعجبك وترضيك.

أما إن كنت في حزب الأقلية، فلا تحظى بمثل هذه الحماية. وعليك التصويت بنعم أو لا كلما عرض مشروع قانون، مع معرفتك أن من المستبعد التوصل إلى تسوية تعدها أنت أو أنصارك نزيهة أو عادلة. وفي حقبة تبادل الدعم والمكاسب والمحسوبية العشوائية ومشروعات قوانين الإنفاق الهائلة المتزامنة، يتأكد لك أيضا حتمية وجود شيء ما ـ تمويل الستر الواقية لجنودنا مثلا، أو زيادة متواضعة في معاشات قدامى المحاربين ـ يجعل من الصعب والمؤلم معارضة القانون، وذلك بغض النظر عن عدد البنود أو الشروط السيئة فيه.

في الولاية الأولى على أقل تقدير، تضلع البيت الأبيض في ظل جورج بوش من مثل هذا الفن التشريعي القائم على استهداف الربح وزعزعة ثقة الخصوم والمعارضين. ثمة قصة مفيدة فيما يتعلق بالمفاوضات المحيطة بأول جولة من التخفيضات الضريبية التي أعلنها بوش، حين دعا كارل روف سيناتورا ديمقراطيا إلى البيت الأبيض لمناقشة دعمه المحتمل لمضمومة مشروعات قوانين الرئيس. كان بوش قد فاز في ولاية السيناتور في الانتخابات السابقة ـ نتيجة عوامل عديدة منها التخفيضات

الضريبيـة ــ وأيد السيناتور عموما المعـدلات الهامشية المنخفضـة. ومع ذلك أقلقته الدرجـة التي انحرفت فيها التخفيضـات الضريبية المعروضة وجهة الأغنياء، واقترح إجراء بعض التغييرات التي تعدل وتلطف تأثر المضمومة.

قـال السيناتور لـروف: «إذا أجريت هذه التغييرات لا أضمـن لك صوتي فقط بل أصوات سبعين عضوا في مجلس الشيوخ».

أجاب روف: «لا نريد سبعين صوتا، بل واحدا وخمسين».

ربما حسب روف، أو لم يحسب، أن مشروع قانون البيت الأبيض سياسة جيدة، لكنه ميـز العضو المفيد حين رآه. فإما أن يصوت السيناتور بنعم ويساعد في تمرير برنامج الرئيس، أو يصوت بلا ويصبح هدفا مباشرا ومكشوفا في الانتخابات القادمة.

في النهايـة، صـوت السيناتور بنعم ــ مثل العديد مـن الديمقراطيين في الولايات الحمـراء ـ وعبر هذا دون شك عن المشاعر السائـدة تجاه التخفيضات الضريبية في ولايتـه. ومع ذلك، توضح قصص كهذه بعضا مـن الصعوبات التي يواجهها أي حزب أقليـة عنـد الاتفاق بين الحزبين. الجميع يحبون فكرة الاتفـاق بين الحزبين. ووسائل الإعـلام على وجه الخصوص مغرمة بالتعبير، نظرا لأنه يغايـر بإتقان «المشاجرات الحزبية» التي تشكل الحبكة المهيمنة في القصص المتعلقة بـ «كابيتول هيل».

لكـن الاتفاق الحزبـي الحقيقي يفترض وجـود عملية نزيهة مـن الأخذ والعطاء، وقياسـ نوعية وجـودة التسويات وفقا لمدى خدمتها للهدف المتفـق عليه، بغض النظر هل يتمثل في تحسين حال المدارس أو تخفيض العجز في الميزانية. وهذا بدوره يفترض تقييـد الأغلبية ـ بواسطة صحافة كثـيرة المطالب وناخبين عارفين ومطلعين ـ ودفعها للتفاوض بنية صافية وسليمة. فـإذا لم تتوفر هذه الظروف ـ إذا لم يركز أحد خارج واشنطـن انتباهـا حقيقيـا علـى جوهر ومـادة مشروع القانـون، وحجبـت التكاليف الحقيقيـة للتخفيضات الضريبيـة خلف حسابات مزورة وقللـت قيمتها بمبلغ ترليون دولار أو نحـوه ــ يمكن لحـزب الأغلبية أن يبـدأ المفاوضات بإلحاح علـى تلبية نسبة 100% مـن مطالبه، ثم يتراجع بنسبة 10%، وبعدئذ يتهم أي عضو من حزب الأقلية

يمتنع عن دعم وتأييد هذه «التسوية والتنازل» بأنه «معرقل» أما فيما يتعلق بحزب الأقلية في هذه الظروف، فإن «الاتفاق الحزبي» يعني التعرض بشكل مزمن للضغوط والإجبار والإكراه، مع أن بعض الأعضاء ربما يحظون بمكاسب سياسية معينة عبر مسايرة الأغلبية واكتساب سمعة «الاعتدال» و«الوسطية»

ليس من المفاجئ وجود ناشطين يلحون بإصرار على وقوف الأعضاء الديمقراطيين بثبات في مواجهة أي مبادرة جمهورية هذه الأيام حتى تلك التي تشمل بعض المزايا ــ كمبدأ وقاعدة. ومن العدل القول إن هؤلاء لم يصلوا قط إلى أي منصب عام رفيع كديمقراطيين في ولاية يهيمن عليها الجمهوريون، ولم تستهدفهم الدعاية التلفزيونية السلبية التي تكلف عدة ملايين من الدولارات. وما يفهمه كل سيناتور هو أنه في حين يسهل جعل التصويت على تشريع معقد يبدو شريرا وفاسدا في دعاية تلفزيونية تمتد ثلاثين ثانية، إلا أن من الصعوبة بمكان شرح الحكمة الكامنة وراء التصويت ذاته في أقل من عشرين دقيقة. وما يعرفه كل سيناتور أيضا أنه خلال مسار فصل تشريعي واحد، عليه أن يدلي بصوته آلاف المرات. وعليه تقديم عدد كبير من التفسيرات المحتملة وقت الانتخابات.

ربما تجسد أكبر جزء من حظي السعيد خلال حملتي الانتخابية للوصول إلى الكونغرس في عدم استهدافي بالدعاية التلفزيونية السلبية. ولهذا علاقة وثيقة بالظروف الغريبة للسباق الذي خضته، لا بغياب الموضوعات التي تصلح كذريعة لمهاجمتي. فعلى الرغم من كل شيء، قضيت في مجلس شيوخ الولاية سبع سنين قبل الترشح إلى الكونغرس، وبقيت في الأقلية ستا من هذه السنوات السبع، وأدليت بآلاف من الأصوات التي كانت صعبة أحيانا. وكممارسة معيارية هذه الأيام، أعدت اللجنة الوطنية الجمهورية المختصة بمجلس الشيوخ ملفا سميكا من الأبحاث والدراسات المعارضة لي قبل حتى أن أترشح، وأمضى فريقي البحثي ساعات طويلة يدرس ويمحص سجلي في مسعى منه لتوقع الدعايات السلبية التي قد يطلقها الجمهوريون ضدي.

لم يجد الكثير، لكنه عثر على ما يكفي لما يحتاجونه ـ عشرة أو نحوها من الأصوات التي أدليت بها ويمكن إذا ما انتزعت من السياق أن تبدو مفزعة فعلا. وحين اختبرها

مستشاري الإعلامي، ديفيد اكسيلرود، في استطلاع للرأي، تراجع معدل التأييد عشر نقاط على الفور. هنالك مشروع قانون جنائي قصد منه اتخاذ إجراءات صارمة بحق ترويج المخدرات في المدارس لكن صياغة مسودته كانت هزيلة إلى حد أنني استنتجت أنه غير فعال وغير دستوري ـ «أوباما صوت لصالح إضعاف العقوبات الجزائية على عصابات الشوارع العنيفة التي تروج المخدرات في المدارس»، حسب وصف الاستطلاع. هنالك أيضا مشروع قانون قدم برعاية الناشطين المناهضين للإجهاض وبدا في الظاهر معقولا إلى حد كاف ـ حيث أجاز الإجراءات التي تنقذ حياة الخدج (لم يذكر مشروع القانون أن هذه الإجراءات قانونية أصلا) ـ لكن وسع «حالة الفرد الإنسانية» لتشمل الأجنة التي لم تكتمل بعد، ومن ثم عكس قرار «رو ضد ويد»* ؛ في الاستطلاع، قمت كما قيل «بالتصويت لحرمان الأطفال الذين يولدون أحياء من المعالجة التي تنقذ حياتهم» وبعد مراجعة القائمة، عثرت على زعم يقول إنني حين كنت عضوا في مجلس شيوخ الولاية عارضت مشروع قرار «لحماية أطفالنا من الانتهاك الجنسي»

قلت وأنا أخطف الصفحة من يد ديفيد: «رويدك. لقد ضغطت صدفة على الزر الخطأ عند التصويت على مشروع القانون هذا. كنت أنوي التصويت بنعم، وصححت الخطأ على الفور في السجل الرسمي»

ابتسم ديفيد وقال: «لا أظن أن هذا الجزء من السجل الرسمي سيظهر في الإعلان الدعائي الجمهوري» ثم استرد بلطف الصفحة من يدي، وأضاف وهو يربت كتفي: «على أي حال لا تكتئب. أنا متيقن أن ذلك سيساعدك في مسألة التصويت على الانتهاك الجنسي»

أتساءل أحيانا ما الذي كان سيحدث لو عرضت تلك الدعايات فعلا. لا من ناحية تأثيرها في فوزي أو خسارتي ـ بحلول الوقت الذي انتهت فيه الانتخابات التمهيدية كنت أسبق المنافس الجمهوري بعشرين نقطة ـــ بل من ناحية رأي الناخبين بي، وكم ستقل وتتقلص المشاعر الصادقة والنيات الحسنة عند دخولي إلى مجلس الشيوخ.

* قرار مثير للجدل أصدرته المحكمة الأمريكية العليا عام 1973، قضى بأن المرأة، وفقا للحق في الخصوصية، تمتلك حقا غير مقيد في الإجهاض خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل. لقي القرار قبولا واسعا من القوى المؤيدة للإجهاض ورفضا عنيدا من الحركات المناهضة للإجهاض. (م)

فهكـذا دخل معظم زملائي، جمهوريين وديمقراطيين، مجلس الشيوخ، حيث ضخمت أخطاؤهـم، وحرفـت كلماتهم، ووضعـت دوافعهم موضـع المساءلـة والتشكيك. لقد تعمـدوا في تلك النـار؛ والشبح يطاردهم كلما صوتوا على قانـون أو قرار، أو أصدروا بيانـا صحفيا، أو أدلوا بتصريح، شبح الخـوف لا من خسارة سباق سياسي فقط، بل من خسارة تأييد وتعاطف أولئك الذين أرسلوهم إلى واشنطن ـ كل أولئك الذين قالوا لهم يوما ما: «لدينا أمل كبير بكم. أرجوكم لا تخذلونا»

بالطبـع، هنالك طـرق تقنية في ديمقراطيتنا ربما تخفف شـدة هذا الضغط على السياسيين، تغييرات بنيوية تقوي وتعزز الرابطة بين الناخبين وممثليهم. توزيع المناطق على أساس غير حزبي، والتسجيل في اليوم ذاته، والانتخابات في عطلة نهاية الأسبوع، تزيد جميعا تنافسية السباقات وتحفز مزيدا من المشاركة من جانب الناخبين ـ وكلما زاد انتباههـم واهتمامهـم، زادت مكافـأة الاستقامة والنزاهة والأمانـة. إن التمويل العـام للحملات الانتخابية أو تخصيص وقت مجاني لها في التلفزيون والإذاعة يمكن أن يقلص إلى حد بعيد الاستجداء الملح للمال وتأثير المصالح الخاصة. التغييرات في القواعد والأنظمة في مجلسي النواب والشيوخ قادرة على تمكين الأعضاء المشرعين في الأقلية، وزيادة الشفافية في العملية، وتشجيع مزيد من التقارير الفاحصة المتعمقة.

لكـن يتعـذر حدوث أي من هـذه التغييرات من تلقـاء نفسهـا. إذ يتطلب كل منها تغيـيرا في الموقف والرأي لـدى أولئك القابعـين في السلطة. وأن يتحـدى السياسيون النظام القائم؛ ويخففوا تشبثهم بالمنصب؛ ويكافحوا مع أصدقائهم وأعدائهم دفاعا عـن الأفكار النظريـة المجردة التي يبدو أن عامة النـاس لا يهتمون بها كثيرا. يتطلب أيضا استعدادا للمخاطرة بما يملكونه ويتمتعون به الآن.

وهكـذا نعـود في النهايـة إلى تلك السجية التـي سعى جون كنيـدي إلى تحديدها وتعريفها في وقت مبكر من حياته السياسية وهو في طور النقاهة بعد العملية الجراحية التي أجراهـا، واعيا ببطولته في الحرب لكن مفكرا بالتحديات المبهمة التي تنتظره ـ سجيـة الشجاعة. فكلما طالت مدة بقائك في معـترك السياسة يجب أن يسهل عليك التمكـن مـن هذه الشجاعـة، لأن التحرر يأتي حتمـا من إدراك حقيقـة أنك لا بد أن

تغضب بعض الناس مهما فعلت، وأن الهجمات السياسية ستشن عليك مهما كنت حذرا في التصويت، وأن الحكم الحصيف المتروي قد يعد جبنا وتعد الشجاعة نفسها خطة أنانية محسوبة للحصول على المكاسب والمغانم. وجدت راحة البال في حقيقة أنني كلما طال عهدي بالسياسة تقلصت أهمية الشهرة في نظري، وأن السعي إلى السلطة والرتبة والشهرة يبدو وكأنه يفضح فقرا في الطموح، وأنني مسؤول أمام ضميري ونظراته المحدقة.

وأمام الناخبين أيضا. فبعد لقاء مع الأهالي المحليين في غودفري، أتى إلي عجوز وعبر عن غضبه على عدم دعوتي حتى الآن إلى الانسحاب الكامل من العراق، على الرغم من معارضتي للحرب. تبادلنا نقاشا وجيزا وممتعا، عبرت فيه عن قلقي من أن انسحابا متعجلا من العراق سوف يؤدي إلى نشوب حرب أهلية طاحنة في البلد مع احتمال امتداد الصراع ليشمل الشرق الأوسط برمته. في نهاية حديثنا صافحني وقال:

«مازلت أعتقد أنك مخطئ. لكن يبدو على الأقل أنك فكرت في الأمر. كنت ستخيب ظني لو وافقتني الرأي على طول الخط».

قلت وهو يبتعد: «شكرا لك» وتذكرت عبارة قالها القاضي لويس براندیز ذات مرة: أهم منصب في الديمقراطية هو منصب المواطن.